

المعنى الحِسِّي والمعنى الروحي للأقوال الإلهية

من رسائل القديس

الأب صفرونيوس القصيرة

١– صفرونيوس إلى الأخوة الذين في الشركة.

صلوا لأجلنا؛ لأن الصلاةَ تشُدُّ أزرَ المقاتلين وتقوِّي عــزمهم، أمَّــا الــذين يستسلمون لنزوات الجسد وأهواء النفس، فهؤلاء يحتــاجون مِنَّــا إلى دمــوعٍ مــع الصلوات.

٢– كتبتم إلينا عن المعنى الحسي والمعنى الروحي لأقوال الله الحية، وما أكتبه إليكم، هو ما استلمته أنا من الذين عاشوا قبلنــا، وســلَّمونا الوديعــةَ، أي الإيمــان الأرثوذكسي.

٣– ليست كل أقوال الله ذات أعماق واحدة، كما أن الذين يرونها، ليست لهم ذات قوة النظر. وعيونُ الأطفال تختلف في تركيبها عن عيون الشــيوخ، ولكــن الإدراك مختلفٌ. وهكذا الذين يقرأون كلمة الله، فليست العبرة بمن يقرأ، ولكن العبرة في الإدراك الذي يتكوَّن من خلال الصلاة والحياة الحسنة والعبادة.

٤– الأقوالُ الإلهية لا يمكن أن تؤدِّي بنا إلى إنكار العقيدة المُسلَّمة إلينا مــن القديسين. وكمثالٍ لذلك، عندما جادل بعضُ الأخوة حول معنى قول الرب: "هذا هو جسدي .. وهذا هو دمي"، فقد قال أحد الشيوخ إن الكلام له معنى ظاهر؛ لأن الربَّ تجسد فعلاً ومات على الصليب، ولذلك، إذا قال: "هذا هو جسدي وهذا هو دمي"، فهو يعني فعلاً جسده ودمه بالمعنى المحسوس الواضح. لكن هنــاك عمقــاً روحيــاً في الكلمات ندركه من قول الرب نفسه؛ لأن الجسد، جسدٌ حيٌّ ومحيي، فمنــه نأخــذ الحياة الأبدية كما قال ربنا: "إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان ليس لكم حياة فــيكم"، وبهذا صار من الواضح أن الأكل هو الذي يؤخذ روحياً، ولــيس حســب ظــاهر الكلمات المحسوسة.

٥- لقد سأل الأخوة عندما كنا نقرأ الرسالة إلى العبرانيين في المجمع عن معنى قول الرسول عن الذين عاشوا بالإيمان أنهم "أطفئوا قوة النار". وقال أحد الشيوخ إن النار لم تقوَ على أنفسهم لأنها حيةٌ بالله، وبالتالي صار اللهيب لا شيء، رغم أنه أكل أجسادهم. هذا المعنى صحيح؛ لأنه يعتمد على قول الرب عن عدم الخوف من الموت حسب الجسد، أي قتل الجسد وإشعال النار فيه، وإنما لا يجب أن يؤخذ هذا المعنى الروحي لإنكار قدرة الإيمان على إطفاء النار بالمعنى الحسي الظاهر؛ لأن الفتية الثلاثة في أتون النار، لم تمسَّهم نيران الأتون بسبب حضور ربنا يسوع المسيح ابن الله معهم، هذا هو المقصود من قول الرسول.

٦- بنفس الروح يقول الرسول: "قارنين الروحيات بالروحيات"، وهذا يعني أن أعماق كلمة الله تُفسِّرُها أقوال الله نفسه. وبالمقارنة بين الأمور الروحية الواضحة، يصير المعنى الخفيُّ غير المعروف ظاهراً لنا. ففي قول الرب للمرأة السامرية عن الماء، معنىً خفياً لا يظهر إلا بالمقارنة بما جاء عن الماء في نفس الإنجيل والأقوال الأخرى، وعندئذ يصبح من الواضح أن الربَّ يتحدث عن الروح القدس الذي سوف يفيض منه على البشرية؛ لأنه هو الرأس الذي مُسِحَ أولاً، ومنه تنزل المسحة على باقي أعضاء الجسد، كما يقول المزمور.

٧- وأيضاً في قول الرسول بولس عن الكنيسة إنها "**جسد المسيح الواحد**"، فالمعنى الحسِّي الظاهر هو أننا فعلاً من أعضاء لحمه وعظامه، مثلما صارت حواء من آدم؛ لأنها أُخذت منه فعلاً، لكن هذه الصيرورة ليست هي المقصودة، وإنما مقصودٌ منها أننا ننال الميراث السماوي على النحو الذي قاله الرب: "حيث أكون أنا يكون خادمي معي"، وأيضاً: "أنا ذاهبٌ لكي أُعد لكم مكاناً ومتى ذهبت وأعددته لكم أجئ إليكم لكي آخذكم". **ومن الواضح أن جسد المسيح يعني شركة الميراث السماوي والمجد والبنوة من الآب. لكننا لا يجب أن ننكر وحدتنا معه في الجسد الواحد؛ لأننا صرنا شركاء المجد الإلهي، ليس بتقوانا، وإنما لأنه ألبسنا طبيعةً جديدةً هي طبيعة آدم الثاني الذي قهر الفساد والموت وسد فم الهاوية. وبدون التجسُّد ما**

كانت الكنيسة تُدعى جسد الابن. وبدون اتحاده بنا، لا نصير نحن أعضاء جسده. وعلى ذلك يصبح من الخطر الشديد هنا أن نفصل المعنى الحسي الظاهر عن المعنى الروحي؛ لأننا إن فعلنا هذا نكون قد سقطنا في بدعة الخياليين الذي أنكروا مجيء ابن الله في الجسد. هؤلاء لا يمكنهم أن يظلُّوا في الكنيسة إلا إذا اعترفوا بها جسدَ المسيح الواحد غير المنقسم.

٨– وهكذا، لنسرعَ بوضع أقوال الله على أساس الإيمان الذي استلمناه. وأنا أعني الإيمان الرسولي الذي هو الإيمان بالثالوث وبتجسد ابن الله وموته وقيامته، وبالفوائد الأخرى التي وضعها آباء المجمع العظيم، فهي المفاتيح التي تفتح لنا أسفار الله، وتؤكِّد صحة التعاليم التي نسمعها.

٩– وإذا كان، بمقارنة الواضح بالغامض والسِّرِّي، يصير لنا معرفةً يقينيةً، وكذلك، بالبحث عن غاية المُفسِّر يصير لنا إفرازٌ؛ لأن الذي يفسِّر أقوال الله، يحكم تفسيرُهُ على صدق إيمانه وعمقه. فالبعض الذين ينكرون المعجزات بسبب تأصُّل الفلسفة الوثنية في فكرهم، هؤلاء يميلون إلى الرمزية في التفسير هرباً من المشاكل التي يسببها المعنى الحسي. ولكن تفسير أقوال الله ليس بالهرب منها، وإنما بصدق الإيمان. فإن كان إشباع الآلاف بخمسة أرغفة يبدو أمراً فائقاً لا يصدقه العقل؛ لأنه يفوق الإدراك، فالهدف الروحي للمعجزة هو تأكيد الإيمان بأن المسيح هو حياة العالم، وإن الخبز الذي يُشبِع الإنسانية هو الإفخارستيا. وكثيراً ما قام ربنا بمعجزاتٍ كثيرة لكي يؤكِّد الأساسات التي يقوم عليها البناء، وهي أنه الإله الحي والمُتَّحِد بالناسوت، وأنه خبز الحياة وماء الحياة. ومعجزات الرب كلها لا تخلو من المعاني الروحية الفائقة الظاهرة بوضوح في إطار البشارة التي حملها لنا الرسل.

وأنا أسألكم أيها الأخوة: أليس من المستطاع للرب أن يشفي الأبرص بكلمة؟ نعم، وقد أقام لعازر بكلمة، ولكنه شفى الأبرص عندما لمسه، وكذلك فعل مع المرأة النازفة الدم، إذ تركها تلمسه ومنه "خرجت قوة" شفتها؛ لأنه في كلتا المعجزتين،

أظهر أنه لا يستحي من برص الإنسانية وعجزها ومرضها، وأنه لا يخجل ولا يستحي بإخوته. ومرةً لَمَسَ النعشَ لكي يؤكد أن الحياة تسري منه. أمَّا مع لعازر، فقد صرخ فيه وأعاده إلى الحياة لكي يعلن أن الكائنات كائنةٌ بكلمة قدرته، وأنه يــأمر بكلمــةٍ، فيعطي حياةً لمن يشاء، فهو الحامل كل الأشياء بكلمة قدرته.

١٠– ولذلك، علينا ونحن نتأمل أقوال الله، أن نبحث نحن الهــدف الــذي لأجله كُتِبَتْ هذه الأقوال. مرَّاتٍ أكَّد الإنجيليون إيمان الرسل، وأحياناً أعلنــوا عــن ضعف إيمانهم، بل مرةً انتهر الربُّ بطرسَ وقال له: "أنت معثرةٌ"، فكيف نراهم مرَّاتٍ أصحابَ إيمانٍ ومرَّاتٍ ضعفاء؟ الواضح لنا، وحسب تسليم الآباء، أن الرسل كــانوا أقوياء في الإيمان متى كانوا ينفِّذون وصية رسوليتهم: "اشفوا المرضى اقيموا المــوتى". ولكنهم، عندما يكونون في حضرة المسيح وهو واقفٌ معهم، فالأنظــارُ تتجــه إليــه وحده. وأينما كان الرب واقفاً، كان الرسل يعجزون عن القيام بالمعجزات؛ لأنه مــتى حضر السيد، اختفى العبد. أمَّا عندما كان الربُّ بعيداً أو هم بعيدون عنه، أعطــاهم السلطان على القيام بالمعجزات.

١١– وعلى هذا الأساس السليم يجب أن نبني؛ لأن الرسل كثيراً ما أظهــروا ضعفهم، وهو ضعفٌ حقيقيٌّ؛ لأن السلطان العامل فيهم هو سلطان الرب. ولــذلك، كثيراً ما فشلوا، حتى يظهر لنا بوضوح، أن القوة الإلهية ليست حسب مشيئتهم، وإنما حسب مشيئة السيد الذي أعطاهم وفوَّضهم في القيام بخدمة الرسولية.

١٢– أمَّا إذا تعارض تفسير أقوال الله مع التعاليم الثابتة، فإن هذا التعــارض ينشأ بسبب عدم الإدراك، وهو ما أعنيه عن القول إن عيون الأطفال ليست مثل عيون الشيوخ، فعلى الرغم من أن الطبيعة الجديدة التي فينا هي طبيعة واحدة؛ لأنها هبــة الله في المسيح، إلا أن الإدراك ليس واحداً في الكل. وهذا ما يدعونا إلى أن نعود إلى الذين تدرَّبوا على الإيمان واكتشفوا أعماق أقوال الله.

١٣- لكن في كل هذا، يجب أن تكون المحبة هي غاية قراءة أقوال الله؛ لأن الذي يقرأ من أجل الجدال ووضع العثرات في طريق الأخوة، فهو لا يجمع مع الرب، إنما يفرِّق مع الشيطان.

تقوَّوا في الربِّ لكي تنالوا فيضَ محبته للآب. الربُّ يحفظنا وإياكم في محبتـــه. صفرونيوس يسأل صلواتكم.

+ + +